

وكأني أعطيت وساماً أحسان سعد المغربي



بعد طرح مقالتي (التقاعد مسيرة عطاء ولمسة وفاء) ، تعددت التعليقات حول هذا المقال في كلمات رائعة من زميلات وطالبات وأحبة وقرّاء متابعين ولكن تفرّد من بينها تعليق اهتزت له مشاعري ختمته أستاذتي بقولها : (.. يا حبيبتي يا حنان .. يا طاليتي النجيبية) ..

ويعلم الله كم فرحت بالردود وكم أشعرتني بالفخر.. ولكن تعليق معلمتي غمرني بشعور غريب أحسست حينها أنّ معلّمتي كرّمتني على الملأ (وكأنها قلّدتني وساماً) ..

هذه المعلّمة الرائعة أسّست قواعد اللّغة العربيّة لديّ في المرحلة الإعداديّة حيث تلقّدت على يديها..

هياّ معي نتعرّف على سرّ تواصلتي مع المعلّمة مريم جومر السورّيّة الجنسيّة بعد انقطاع دام (٤٠) عاماً !

في أول يوم دراسي في المرحلة الجديدة التي يثبت فيها الطلبة وجودهم بإحداث الفوضى قبل التعرف على معلّمتنا الجديدة ولسوء حظنا كانت الحصة الرابعة - المادة قواعد - ، كتبت ذلك على السبورة ثم بدأنا مخرجان الشغب ، وفجأة وإذا بالباب يفتح بقوة أفزعنا وخلال أقل من ثانية وقفت كل طالبة مكانها وطبعا من يعرف أمريم يعرف ماحدث لنا من الرعب والتأديب الكافي الذي جعلنا نلتزم الصمت والهدوء طيلة أيام دراستنا ، وبعد ذلك سمحت لنا بالجلوس في أماكننا فتنفسنا الصعداء وماهي إلا ثوان قليلة من الهدوء حتى أخذت تلتفت يميناً ويسرة وتنظر باتجاه السبورة تبحث عن شيء ما لانعرفه ثم سألت بحزم : مافي حوار؟

كررت سؤالها ونحن ننظر إليها وعلامات الدهشة والاستفهام واضحة على وجوها؟

ثم طافت على الطالبات جميعهن بنظراتها المتفحّصة ووقع اختيارها علي وبنبرة حادة لم أعهدّها في حياتي قالت (قومي هاتي حوار) .

وقفت برهة ثم انطلقت مسرعة من الفصل لا أعلم ماذا تريد ولا أدري أين أتجه ؟

وألف سؤال في ذهني؟

هذه معلّمة العربي؟

سأكره اللّغة بسببها؟

لقد خفت منها كثيراً؟

وأنا لا أستطيع الفهم في هذا الحال المخيف .

بحثت عمّا تريد في ساحة المدرسة لعلّي أجد شيئاً غريباً قد يكون هو ماتطلبه ، ثم قرّرت الدّهاب إلى غرفة المعلّمت لحل هذا اللّغز .. وغرفة المعلّمت في زمننا الجميل لم يكن الوصول إليها سهلاً بل إنّ دخولها من المحرّمات ، وكان لابدّ من المجازفة بالقرب من الغرفة ..

لمحت معلّمة تريد الخروج منها كانت لطيفة معنا حضرت حصتها لم تعطينا درساً تعرّفت علينا وعرّفتنا باسمها أريج معلّمة تاريخ وجغرافيا .. من بعيد استندت بها لمعرفة طلب أستاذتي الجديدة التي لم نعرف اسمها وأخبرتها بأنها غاضبة جداً وتبحث عن حوار وأمرتني بإحضاره وأنا لا أعرفه ، هل هو عصا ستعاقبنا بها ؟ أم انه شيء آخر ليس في قواميس حياتنا؟ ضحكت أستاذتي / أريج وقالت : إنها تريد(الطباشير) وتجديها عند المديرية

ذهبت لمديرتنا وأخذت منها ٤ أصابع من الطباشير وقدمتها بقولي : تفضلي.. لعل كلمتي تلطّف الغضب الطاهر في وجهها وبدأت معلّمتنا درسها الممتع بكتابة الأمثلة وشرحها ثم استخراج القاعدة وحلّ التمارين بطريقة رائعة وأسلوب شائق أبهّر المتلقين فمابالك بعشاق اللغة العربية؟ دق الجرس منهيًا الحصة بقدر هائل من المعلومات المفيدة والواجبات الكثيرة المثيرة ..

استمتعت بشرحها كثيراً"كانت قوية في كل شيء

قوية البنية .. قوية الصوت .. قوية في العطاء .. متمكّنة من مادتها.. سخية في الثناء .. حازمة في العقاب ..

كانت مادتها من أجمل المواد وأروعها فاللغة العربية دوحة غناء للأستاذة مريم أطربتنا فيها بأرق وأجمل الألحان ، فرضت معلّمتنا الرائعة علينا احترامها وهيبتها في حصتها لاتسمع همساً" حتّى لكأننا نكتم أنفاسنا لنستمع بكل لحظة من شرح الدروس وكانت الطالبات متلهفات للاستزادة من عطائها الرائع.. ولكن أيضاً هناك من لايجيد الإملاء أو سيء الخط وثقة متزوجات مشغولات بأمور أزواجهن وبيوتهن فيبدو منهن بعض التقصير .. أما أنا فقد وجدت ضالتي وتحققت غايتي في دروس اللغة العربيّة وواجباتها التي وسّعت مداركي وأضافت لي الكثير الكثير مما لا يمكنني حصره .. وكانت المعلّمة تقوم بعرض دفاتري في الفصل كأفضل ما أنجز من خط جميل وإجابات صحيحة وانعدام الأخطاء الإملائية.. ولصغر سنّي وضآلة جسمي كنت كثيرة الحركة سريعة الاستجابة لتلبية طلبات معلّمتي فأعجبت بي وكلفنتي بمتابعة واجبات زميلاتي لتصحيح أخطائهن وجمع الدفاتر ونقلها إلى غرفة المعلّمت ..

كنت أتحدج بحضور معلّمة الحصة التي تليها حتى تتمكن كل زميلاتي من إكمال واجباتهن أو أقوم بإكمالها بنفسي لأن عند تقصير الزميلات

ومعاقبتهن تحدث لدي بليلة نفسية لا أعرف وصفها .. وأتوزّع بين حبي لمعلمتي وبين تعاطفي مع زميلاتي.. ثم تطورت علاقتي بمعلمتي حتى إنها طلبت مني مساعدتها في أن أحمل الدفاتر معها لبيتها.. شعرت بسعادة بالغة لمرافقة معلمتي حتى بيتها ولكن ماكان في حسابي أن بيتها ليس بالقرب من بيوتنا بل ضمن البيوت النائية..

لم أفكرّ بذلك مطلقاً" بل كان هدفي مرافقتها ومعرفة عنوان بيتها حتى أزورها أنا ووالدتي في الإجازة ، وعند عودتي إلى البيت ظهر لي فداحة ما فعلت فأنا أمشي في الطريق وحيدة و الطريق موحشة جداً"

يا إلهي ! سأتأخر عن الوصول إلى البيت !

جريت مسرعة حتى وصلت المدرسة ومن المدرسة أسرع لاهثة إلى بيتنا ..
جمعت الله كثيراً"
لم يشعر أحد بتأخيري

وعن تفاصيل اليوم الدراسي حيث كان والدي يسألنا كل يوم ونحن نتناول وجبة الغداء مع كثير من التوجيهات و غرس القيم والمبادئ في نفوسنا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ..

حدثت أبي عن اليوم حتى نهاية الحصّة السابعة ولم أجروّ على أخباره بذهابي لبيت معلمتي الحبيبة ورحت أحدثه عن شدتها وحزمها وكيف أنني أحبها وأنزعج من شدتها مع المقصّرات وكان رده أن المعلمة الحازمة تكون محبةً لطالباتها شديدة الحرص على مصطلحتهنّ وهي أدرى بما يناسب الطالبات فتستخدم الطرق المناسبة لعلاج ضعفهنّ العلمي أو تعديل سلوكهنّ..

وكان أبي يحذّرنا من اللّعب والفوضى في الفصل لأن وجودنا فيه بهدف تلقي العلم وإثبات احترامنا لأنفسنا ومعلمينا ما يعكس تربية والدينا وإعدادهم لنا..

مرّ ذلك اليوم بسلام
كنت أحضر الحوار وكل طلبات معلمتي قبل الحصّة؛ درأً للعقوبات الغير المتوقعة من معلمتنا الغالية ..

كان سؤالها الدائم حنان مش هون؟ يعني أن أقفز سريعاً وأحضر لها ماتريدقبل أن تكلف إحدى الطالبات بإحضاره وإذا قصرت تنظر نظرة المغضب وتقول مايلي:

ياحنان حني علينا
شو حنان؟ ولك من يبجيب الأغراض غيرك؟
وعندما أتأخر تهمس معاتبة ماتعيديها ثاني.

كان ذلك يسعدني ويشعرنني بقيمتي عندها وأنها تبادلني التقدير والاحترام ..

انتهت المرحلة الإعدادية وبدأت الإجازة ونحن في شوق إلى معرفة النتائج في صف المملكة لزيارة معلماتنا وتوديعهن ولكن ماكل مايتمنى المرء يدركه تأتي الرياح بمالاتشتهي السفن فقد رحل أبي وودعنا إلى الرفيق الأعلى قبل رحيل معلماتي إلى بلادهن وقمن بزيارتنا للعزاء بدل زيارتنا لتوديعهن ..

وهنا انتهى عصر الدلال وبدأت المسؤولية وتطبيق قوانين أبي ليبقى اسمه خالداً بعد موته يفوح مسكاً وطيباً وكبرت وانشغلت في مهامات الحياة ولكني لم أنس أصحاب الفضل من أهل ومعلمات وصديقات وفي جلسة ود مع الفاضلة أم أنور أعطتني أرقام هواتف معلماتي وقمت بالتواصل معهن وتشرفت بمتابعتهن للتزود بخبرائهن وحنانهن ما بقيت ..

شكراً أستاذتي
سأذكرك وأذكر كل معلّمتي مدى الحياة .

حنان سعد المغربي